

استكشاف العالم غير المحسوس؛ بنية الغيب وماهية الوجود الجنّي في نظام الخلق

تحليل العلاقة بين الإنسان وعالم الغيب، وماهية الوجود الجنّي

في النظرة الأولى إلى الوجود، يجد الإنسان نفسه في قلب عالم لا يقتصر على الحيّز المحسوس والمادي فحسب؛ فرغم أنّ تجربتنا اليومية تتشكّل ضمن حدود الزمان والمكان والمادة، فإنّ أيّاً من الأديان الإلهية لم يحصر الوجود في هذه الطبقة وحدها. إنّ الأساس المعرفي للأديان، ولا سيّما الإسلام، قائم على مبدأ مفاده أنّه إلى جانب عالم المادة، يوجد عالم آخر؛ عالم غير محسوس، منظمّ، وفاعل، عبّرت عنه النصوص الدينية بمصطلح «عالم الغيب». وتنبع أهمية الخوض في بنية هذا العالم، وتحليل الماهية الوجودية للجنّ، من كون العلاقة بين الإنسان وسكّان هذا الحيّز تؤدّي دورًا مباشرًا في تشكيل السلوكيات، والاختيارات، بل وحتى في صياغة إدراكنا لمفاهيم الأمن والتهديدات الروحية.

ضرورة معرفة عالم الغيب في البنية المعرفية للإنسان

نحن نعيش في عالم المادة، وهذا الواقع يفرض بطبيعته قيودًا على أدواتنا الإدراكية. ولذلك لا ندرك من الوجود سوى جزءٍ منه. وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه المحدودية، ودعا المؤمنين إلى تنظيم مساهمهم المعرفي على أساس «الإيمان بالغيب»¹. ومن هذا المنظور، لا يُعدّ عالم الغيب إضافة هامشية إلى عالم المادة، بل هو ساحة أصيلة وجوهرية في نظام الخلق، بحيث إنّ الغفلة عنها يؤدّي إلى قصور جوهري في فهمنا للإنسان والكون معًا.

ويمثّل وجود الملائكة، بوصفهم كائناتٍ مجرّدة، نموذجًا واضحًا لهذه السعة الوجودية. فقد أشار القرآن الكريم في آياتٍ عديدة إلى الحضور الدائم للملائكة، كما أحصى نهج البلاغة ما يقرب من أربعين صفةً لهم؛ وهي صفات تكشف بجلاء أنّ عالم الغيب ليس واقعًا حقيقيًا فحسب، بل هو عالمٌ منظم، ذو مراتب وجودية، ووظائف دقيقة، ويتفاعل مع الإنسان ضمن نظامٍ محكم.

¹ سورة الأعراف، الآية ١٨٥، «أُولَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»

ويأتي التعرف إلى الماهية الوجودية للجنّ في السياق نفسه من الضرورة؛ إذ إنّ الجنّ، على خلاف الملائكة، كائناتٌ مادية ولكنها غير محسوسة، ومن ثمّ فهي تقع على التخوم الفاصلة بين التجربة الإنسانية والبُنى الغيبية. وهذه الخصوصية تجعل تحليل حقيقتها أكثر تعقيداً، غير أنّها في الوقت ذاته تزيد من إلحاح الحاجة إلى دراستها وفهمها.

مكانة الجنّ بين موجودات غيبية

على الرغم من أنّ الملائكة كائناتٌ مجردةٌ تجريدياً تاماً، فإنّ الجنّ يندرجون ضمن فئة الموجودات المادية، غير أنّ طبيعتهم غير المحسوسة تُحدث لدى الإنسان نوعاً من الالتباس المعرفي؛ إذ يخلط أحياناً بين عدم الإحساس والتجرد. وقد صرّح القرآن الكريم بوضوح بأنّ الجنّ خلُقوا من «نارِ السّموم»^٢، وهي مادّة لطيفة، مغايرة للمادّة الكثيفة التي يتكوّن منها عالم الإنسان. هذه اللطافة هي التي تجعل الجنّ خارج نطاق الإدراك الحسيّ المعتاد، مع بقائهم في الوقت نفسه جزءاً من عالم الطبيعة، متّصّفين بخصائص مادية.

ومن هنا تتجلّى أهمية الالتفات إلى الماهية الوجودية للجنّ في هذا السياق؛ إذ إنّ تحديد موقعهم في منظومة الوجود من دون تحليل بنيتهم الوجودية، يؤدّي إلى سوء فهمٍ فيما يتعلّق بقدراتهم، ومدى تأثيرهم، وحدود تواصلهم مع الإنسان. فالماهية الوجودية للجنّ تكشف أنّهم ليسوا ملائكةً سقطوا من مراتبهم، ولا قوى مستقلّة عن الإرادة الإلهية، بل كائناتٌ مختارة، مكلفة، وذات مراتب أخلاقية. وقد أكّد القرآن الكريم وجود المؤمن والكافر، والمطيع والمعتدي في صفوف الجنّ، وهو ما يوضّح بصورة أدقّ مسار فهم العلاقة بين الإنسان وبينهم.

ارتباط الإنسان بالجنّ في النصوص الوحيانية

إنّ الإنسان والجنّ، بحكم اشتراكهما في الاختيار، والتكليف، وإمكانية الارتقاء أو السقوط، يسلكان مساراتٍ مشتركة في الوجود. هذه العلاقة، وفقاً للمصادر الدينية، ليست أسطورةً ولا خيالاً، بل هي بنية واقعية، مدروسة، ومضبوطة بحدود واضحة. وتقدّم الآية السادسة من سورة الجنّ نموذجاً محورياً لهذه العلاقة؛ إذ تصوّر حال أناسٍ من البشر في زمن الجاهلية كانوا، عند الخوف أو الإحساس بانعدام الأمن، يلجؤون إلى

^٢ سورة الحجر، الآية ٢٧ "وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ"

سادة من الجنّ، توهّمًا منهم أنّ ذلك يوفّر لهم الحماية من الأخطار الطبيعية أو البشرية. غير أنّ القرآن الكريم يبيّن أنّ هذا اللجوء لم يكن باعثًا على الأمن، بل على العكس، «فَرَادُوهُمْ رَهَقًا»، أي إنّه أدّى إلى زيادة الطغيان، والجهل، والضغط النفسي عليهم.

ويعيدنا تحليل هذه الآية مجددًا إلى سؤال الماهية الوجودية للجنّ؛ إذ إنّ كون الجنّ كائنًا ذا اختيار ومراتب أخلاقية يجعل لجوء الإنسان إليه بمثابة تسليم لإرادته إلى موجودٍ يماثله في المرتبة أو قد يكون أدنى منه. ومثل هذا السلوك يُعدّ، من المنظور المعرفي، انتقاصًا من كرامة الإنسان واستقلاله. وتكشف هذه الآية بوضوح أنّ العلاقة بين الإنسان والجنّ علاقة منظّمة، وأنّ تجاوز الحدود الإلهية فيها لا يفضي إلا إلى مزيد من الأذى والضرر.

نسبة الإنسان إلى موجودات غير محسوسة

قد يُطرح أحيانًا السؤال الآتي: إذا كان الجنّ كائنًا ماديًا، فلماذا لا يستطيع الإنسان رؤيته؟ إنّ الجواب يكمن في النقاش ذاته المتعلّق بالماهية الوجودية للجنّ. فالمادّة التي يتكوّن منها الجنّ تقع في مرتبة من اللطافة تعجز الأدوات الحسية لدى الإنسان عن إدراكها. وكما أنّ الموجات الكهرومغناطيسية أو التردّدات الراديوية موجودة فعلاً، غير أنّها لا تُرى من دون أدواتٍ خاصة، كذلك فإنّ وجود الجنّ يتموضع في طبقةٍ من العالم لا تنكشف إلا بنوعٍ من التجلّي أو بإرادة إلهية خاصة.

ويُسهم هذا المعنى في توضيح الحدود الفاصلة بين الإنسان والموجودات الغيبية. فالإنسان كائنٌ ذو بنيةٍ جسدية-نفسية، وتتوقّف قدرته على التواصل مع العوالم الغيبية على الحدود التي قدّرها الله تعالى له. ومن هنا جاءت الروايات محدّرةً من أيّ محاولة لإقامة علاقة أو تواصل مع الجنّ، ومنبّهةً إلى ما يترتّب على ذلك من عواقب معرفية وأخلاقية.

إنّ اللجوء إلى الجنّ يُعدّ مظهرًا من مظاهر الخروج من دائرة الأمن الإلهي والدخول في نطاقٍ غير مأمون. وهذا السلوك لا ينبع من معرفة حقيقية، بل من جهلٍ بقوانين عالم الغيب، ومن فهمٍ قاصرٍ للماهية الوجودية للجنّ. فالإنسان الذي يلجأ إلى الجنّ طلبًا للقوّة، أو الأمان، أو المعرفة، إنّما يُسلم في الحقيقة جزءًا من إرادته لكائنٍ يقع في مرتبةٍ أدنى منه، وهو نفسه يعاني الضعف، والخطأ، والقصور.

ومن المنظور المعرفي، يكمن الخطأ الأساسي في هذا النوع من التفاعل في تصوّر الإنسان للجنّ على أنّه كائنٌ أسمى منه، بينما يبيّن القرآن الكريم أنّ الإنسان يتقدّم عليه من حيث السعة الوجودية والاستعداد الخَلقي. ولهذا فإنّ إبليس وأعوانه لا يملكون لإضلال الإنسان سوى وسيلة الوسوسة، ولا قدرة لهم على إكراهه؛ لأنّ الإنسان، في بنية الخلق، يحتلّ منزلةً لا يمكن صرفه عن طريق الحقّ إلا بالخداع والتزيين.

ضرورة التمييز المعرفي بين الملائكة والجنّ

يُعَدّ التمييز بين الملائكة والجنّ من المسائل الدقيقة في علم المعرفة الإسلامي. فالملائكة كائناتٌ مجردةٌ منزّهةٌ عن الشهوة والغضب، ولذلك لا يصدر عنها ذنبٌ ولا معصية. أمّا الجنّ، وبحكم طبيعتهم المادّية، فهم يمتلكون قوى وميولاً تُشبه ما لدى الإنسان. وهذا الاختلاف يُبيّن أنّ كلتا الفئتين تنتميان إلى عالم الغيب، غير أنّ بنيتهما الوجودية ووظائفهما تختلفان اختلافاً جذرياً.

ومن الناحية البحثية، يقودنا التأمل في ماهيّة وجود الجنّ إلى أنّهم - لكونهم ذوي مادّة لطيفة - يخضعون لقيودٍ تقارب القيود التي تحكم الإنسان، ولا يصحّ النظر إليهم بوصفهم قوى مطلقة التفوّق، أو جهاتٍ متحكّمة، أو أصحاب قدرة تكوينيّة مستقلّة ويغدو هذا التمييز ضرورةً ملحّةً للحيلولة دون الانزلاق إلى الخرافة؛ إذ إنّ كثيراً من التصوّرات الخاطئة حول الجنّ ناشئةٌ من الجهل بهذا التمييز الدقيق.

الحضور الدائم للجنّ والشیطان في حياة الإنسان

استناداً إلى النصوص الدينية، فإنّ الجنّ والشیطان حاضران في حياة الإنسان، لا بوصفهما كائناتٍ أسطورية، بل باعتبارهما جزءاً من منظومة الابتلاء والاختبار الإنساني. فإبليس، بوصفه أخصبّ الجنّ، يكون في حالتي النوم واليقظة أقرب ما يكون إلى الإنسان عبر الوسوسة، ملازمًا له في خفايا نفسه. غير أنّ النقطة الجوهرية تكمن في أنّ هذا الحضور لا يدلّ على سلطةٍ مطلقةٍ أو قدرةٍ بلا حدود للجنّ، بل يكشف عن ساحة الامتحان التي يمتحن فيها الإنسان.

وهنا يتجلّى الفرق الحقيقي بين الإنسان والجنّ: فالإنسان، بما مُنح من عقلٍ واختيار، قادرٌ على تجاوز هذه الوسوس، والانتصار عليها بإرادته الواعية. ومن جديد، تتبدّى أهميّة البحث في الطبيعة الوجودية للجنّ؛ إذ إنّ الفهم الدقيق لبنيتهم الوجودية يضع حجم قدرتهم وتأثيرهم في إطارٍ واقعيٍّ متزن، بعيدٍ عن التهويل والمبالغة.

إذن، يمكن القول إنّ عالم الغيب جزءٌ أصيلٌ من البنية الحقيقية للوجود، وإنّ الإنسان، من دون معرفته، لا يُبصر سوى ظاهر العالم دون عمقه. فالملائكةُ تمثّل نموذجَ الكائنات المجرّدة، في حين يُمثّل الجنُّ نموذجَ الكائنات المادّية اللطيفة.

إنّ تحليل الطبيعة الوجودية للجنّ يفضي بنا إلى النتائج التالية:

- الجنُّ كائناتٌ حقيقية، ولها موضعٌ محدّد في نظام الخلق.
 - هم موجوداتٌ مادّية، غير أنّ مادّتهم أطفٌ من مادّة الإنسان.
 - يتمتّعون بالاختيار، ويخضعون للتكليف، ولهم مراتب أخلاقية متفاوتة.
 - علاقةُ الإنسان بهم محدودةٌ ومضبوطةٌ ضمن حدودٍ معيّنة.
 - الالتجاءُ إلى الجنّ، على خلاف ما يتصوّر، يفضي إلى الطغيان والضلال.
 - إنّ معرفة هذه البنية ضرورةٌ لا غنى عنها للفهم الصحيح لعالم الغيب.
- وعليه، فإنّ التحليل المعرفي لعلاقة الإنسان بعالم الغيب، ولا سيّما بالجنّ، لا يكون دقيقاً ولا موثوقاً إلا إذا تأسّس على فهمٍ سليمٍ لطبيعتهم الوجودية؛ فهمٌ يجنّبنا الإفراطَ والخرافةَ والمخاوفَ الواهية، ويجلّي للإنسان موقعه الحقيقي في هندسة الخلق ونظام الوجود.